

العمارة في العصر الأيوبي

لعب المسجد في العصور الإسلامية الأولى دور العديد من المؤسسات مثل التكية والمدرسة، التي كانت تعني في تدريس أصول الفقه والشريعة وتعليم القرآن، وكمركز لجميع نشاطات المدينة الدينية والاجتماعية والثقافية. ولكن مع انتشار الدعوة الإسلامية وازدياد عدد المسلمين، بدأ التفكير بإنشاء المباني التي تستوعب تلك الأعداد وتعنى بهذه الأغراض، بعد أن ضاق المسجد عن تأدية وظيفة جميع هذه المؤسسات، ولا سيما بعد تعدد فروع المعرفة وظهور نوع من التخصص في الدراسة، لذلك أنشئت المباني المستقلة عن المسجد من قبل الخلفاء والأمراء، وأشهر تلك المباني المدارس التي تحمل مواصفات معمارية متميزة تتناسب مع الهدف الذي أنشئت من أجله.

المدارس:

عرف المشرق الإسلامي منذ مطلع القرن الخامس الهجري العديد من المدارس، واتجهت فكرة المدرسة غربا عبر العراق في منتصف القرن الخامس الهجري.

أما في سورية فيعود الفضل في إدخال فكرة بناء المدارس إلى سورية لنور الدين زنكي، حينما بنى المدرسة النورية في دمشق عام /1167م/.

وبلغ عدد المدارس في سورية خلال فترة حكم نور الدين زنكي والعصر الأيوبي، أضعاف ما كانت عليه في العهود السابقة، وبلغ عددها في حلب وحدها /6/ مدارس.

ومن أهم مدارس حلب: **المدرسة السلطانية** التي بناها الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي، وكان أول ملك أيوبي يحكم حلب، لتدريس المذهبين الشافعي والحنفي عام 620هـ- /1223م/- **والمدرسة الظاهرية** التي بناها السلطان غياث الدين غازي بن يوسف بن

أيوب عام 1219م/، وكانت معدة لتدريس المذهب الشافعي- المدرسة الكاملية في منطقة المقامات في الجهة الغربية بحلب، ويعتقد بأن فاطمة خاتون ابنة الكامل قد أمرت بتشبيدها في القرن /السابع الهجري- الثالث عشر الميلادي/- وأخيرا مدرسة الفردوس التي سنقوم بدراستها بالتفصيل.

مدرسة الفردوس بحلب:

تقع في محلة الفردوس، وقد أمرت بتشبيدها ضيفة خاتون ابنة الملك العادل سيف الدين أبي بكر، وزوجة الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي، عام 633هـ- 1235م/، وكانت ضيفة خاتون تولت حكم حلب ست سنوات وذلك بعد وفاة ابنها، وقد شيّدت مدرسة الفردوس لتكون جامعا ومدرسة وتربة ورابطا.

للمدرسة مدخلان أحدهما في الشرق والآخر غربي، للمدخل الشرقي ممر منكسر يشكل زاوية قائمة يؤدي إلى صحن واسع مربع الشكل يبلغ طول ضلعه 42/م، يوجد في وسطه حوض ماء مئمن، ومفصص من الداخل بترتيب جميل.

تحيط بالصحن ثلاثة أروقة في الشرق والغرب والجنوب، يوجد في الشمال إيوان سقفه قبوة مهدية، ويفتح على الصحن بقوس مدبب كبير. تستند أقواس الأروقة المدببة على تيجان مقرنصة، وهو أول ظهور لهذا النوع من التيجان، التي بدورها تستند على أعمدة حجرية دائرية.

يوجد خلف كل من الرواقين الشرقي والغربي: صالة سقفا عبارة عن ثلاثة قباب مدببة متماثلة تستند مباشرة إلى الجدران، والأقواس المدببة على جانبيها. وخلف الرواق الجنوبي: القبليّة وسقفا مكونة من ثلاثة قباب مدببة، الوسطى بنيت من الحجارة المنحوتة، وهي تستند إلى رقتين: العليا مكونة من اثنا عشر ضلعا تحوي اثنتا عشرة نافذة، تؤمن الإنارة للقسم الأوسط من القبليّة، أما الرقبة السفلى فهي مربعة، و يتم الانتقال من المضلع إلى المربع بالمقرنصات، أما القبتان الجانبيتان فتستند كل منهما إلى الجدران مباشرة بدون رقتات.

يتم الدخول إلى القبليّة عبر ثلاثة مداخل ذات نهاية قوسية، يوجد على جانبي القبليّة غرفتان، سقف كل منهما قبة تستند مباشرة إلى الجدران. تضم الغرفة الشرقية ضريح، فقد ساد في العصر الأيوبي بناء الأضرحة في إحدى الغرف الملحقة بمصلى المدرسة.

تتميز القبليّة بمحرابها الذي يعتبر من أندر وأجمل المحاريب المصنوعة من الرخام المعشق، وتجمع زخرفته تجمع بين العناصر المعمارية (الأعمدة) والزخارف الهندسية، في وحدة متناسقة تدل على دقة الصنعة والذوق الرفيع بالزخرفة.

يوجد بجوار الإيوان الشمالي، الذي يقع على محور واحد مع القبليّة، مدخل يؤدي إلى ممرين: أحدهما يتجه إلى الغرب والثاني إلى الشمال، وكلاهما ذو سقف نصف أسطواني، الممر

الغربي يؤدي إلى الدرج الذي يؤدي إلى سطح المدرسة وبعض ملحقاتها الثانوية، والشمالى يؤدي إلى أقسام المدرسة الأخرى التي تقوم بوظيفة التدريس للمدرسة، وتتألف هذه الأقسام من قاعات وغرف صغيرة، ربما كانت لإقامة المدرسين والطلاب.

ويوجد خلف الإيوان الداخلى، إيوان آخر خارجى ينفتح إلى الشمال، يشبه الإيوان الداخلى ولكنه أكثر اتساعا. كان يستعمل غالبا رديفا للإيوان والقاعات الداخلية من أجل التدريس في أيام الصيف الحارة، وبنفس الوقت يستخدم من أجل الصلاة في أيام الجمع والأعياد.

تزين الباب الرئيسى للمدرسة كتابة بالخط النسخى تؤكد أن المدرسة أنشئت بناء على أمر من ضيفة خاتون ابنة الملك العادل، وقد تولى البناء عبد المحسن العزيز الناصر.

تعتبر مدرسة الفردوس أول مجمع دينى، ليس في حلب فقط، وإنما في العالم الإسلامى. ولها شهرة عالمية بسبب محاربتها الذى يصنف في عداد أجمل محاريب المساجد والمدارس الإسلامية.

القلاع والتحصينات الدفاعية:

برع المعمارىون المسلمون في العصر السلجوقى والأيوبي في تحصين المدن العربية الإسلامية. بالإضافة إلى التحصينات التى أقامها السلاجقة، فقد جدد الأيوبيون تلك التحصينات وأضافوا عليها عناصر دفاعية أخرى، تزيد من مناعتها وقوتها. كما انتشرت التحصينات الدفاعية في المدن والأماكن الاستراتيجية التى تتحكم في النقاط الهامة المؤدية إلى المدن، وعلى التخوم المجاورة للعدو.

قلعة دمشق وتحصينات المدينة:

يعود تاريخ دمشق الحضارى إلى عهود سحيقة موعلة في القدم، وتوالت عليها الحضارات والدول. وأصبحت في العهد الأموي مركزا للدولة العربية الإسلامية وعاصمة للأيوبيين، ومنبعا للنور والحضارات والقوة السياسية لمدة تقارب قرن من الزمن.

ولكن بعد زوال الخلافة الأموية، أصابها الركود والإهمال، حتى أواسط القرن الحادى عشر الميلادى، فيما بدأ السلاجقة في بناء قلعة دمشق عام /471هـ-1078م/، وعاد لدمشق أهميتها وازدهارها وخاصة في العهد الأيوبي.

القلعة:

تقع قلعة دمشق في الزاوية الشمالية الغربية من مدينة دمشق القديمة. وتبلغ مساحتها حوالى ثلاثة وثلاثين ألف متر مربع، وتعتبر من الروائع المعمارية في القرون الوسطى في بلاد الشام، وهى ذات قوة ومنعة حتى عرفت من قبل المؤرخين القدماء باسم (القلعة المنصورة).

بدأ بناء القلعة في العصر السلجوقي في عام /471هـ- 1078م/، وقد هدمها الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين وبنائها من جديد في عام /599هـ- 1202م/. يتم الدخول للقلعة عبر بابين رئيسيين: الأول في الشمال ويصلها بخارج المدينة ويسمى باب الحديد، والثاني يفتح إلى داخل المدينة ويقع في الجهة الشرقية. هذا بالإضافة إلى أبواب سرية أخرى تساعد على الانقضاض والانتفاف على العدو في حالة الحصار. كما يحيط بالقلعة خندق واسع وعميق، كانت تربطه مع السور جسور متحركة يمكن رفعها في الوقت المناسب.

إلى جانب المداخل المحصنة والخندق الواسع، أحيطت القلعة بأسوار منيعة، تدعمها أبراج عديدة مربعة ودائرية الشكل، مزودة بمرامي السهام والشرفات الدفاعية البارزة والسقاطات.

وأسلوب بناء أسوار القلعة والأبراج، مماثل للأسلوب المتبع في بناء أسوار وأبراج مدينة دمشق، وكل التحصينات مبنية بالمداميك الحجرية المنتظمة الشكل، وقد بنيت تلك المداميك بطريقة الرصف فوق بعضها البعض تربطها المونة.

وقد بلغ عدد أبراج القلعة اثني عشر برجاً. كما أن منشآت القلعة ليست مقصورة على السور والأبراج، وإنما شملت الدور والقصور والحمامات وغيرها من المباني، التي جعلت من القلعة مدينة مصغرة عن مدينة دمشق.

تحصينات المدينة:

بدأ في بناء تحصينات دمشق في الفترة ما بين عام /549 و570هـ- 1154 و1174م/، وأعيد تجديد أسوار المدينة التي تهدمت في العهد الأيوبي، حيث زاد الاهتمام بمدينة دمشق بعد أن اتخذها صلاح الدين الأيوبي مقراً لعملياته الحربية في بلاد الشام، وبنى الأيوبيون العديد من المنشآت المعمارية فيها داخل الأسوار وخارجها.

وقد حصن الأيوبيون مدينة دمشق بشكل منيع ودقيق، إذ جعلوا لها عدة أبواب ذات تخطيط منكسر، كما أضافوا على الأسوار العديد من الأبراج المربعة والدائرية الشكل، والتي كانت مجهزة بسقاطات لرمي القذائف الحارقة من الزيت والقار على رؤوس المهاجمين.

ولم يكتفوا بالأسوار والأبراج، فأحاطوا المدينة بخندق واسع وعميق، يربط بينه وبين الأبواب جسور خشبية ترفع في حالة الحصار، فيكون الخندق خط الدفاع الأول عن المدينة.

وكان لمدينة دمشق تسعة أبواب، مازال معظمها شاهداً على قدرة المعماري العربي والإسلامي وبراعته في مجال بناء الدفاعات العسكرية.

أما بالنسبة للأبراج فما زال العديد منها ماثلاً للعيان، إذ يتألف كل برج من طابقين أو ثلاثة، يصعد إليها بدرج داخلي، وكل طابق له وظيفة يؤديها: فطابق للذخيرة وآخر للاستراحة

والأخير للدفاع والمراقبة، وكل برج مزود بمرامي السهام التي يسمح تصميمها برؤيا واسعة للخارج، تساعد المدافع على مراقبة تحركات العدو وضربه في نقاط متعددة، ومرامي السهام متوزعة بحيث يستطيع المدافعون أن يضربوا سوية على تجمع واحد للعدو.

قلعة حلب وتحصينات حلب وأبوابها:

لا شك أن مدينة حلب كانت مسكونة منذ العصور الحجرية التي سبقت عصر التاريخ، الذي سجل لنا العديد من الأحداث والوقائع عن حلب وتاريخها الطويل، وعن الشعوب التي سكنتها قبل الفتح الإسلامي في عام 637م/.

قلعة حلب:

من المؤكد أن مكان قلعة حلب الأساسي هو مرتفع طبيعي، أضيف له ارتفاع اصطناعي، بحيث أخذ شكل التل العالي المرتفع في وسط المدينة المركز.

وقد كشفت التنقيبات الأثرية عن وجود البقايا التي تعود إلى العصر الحثي من خلال معبد الإله تيشوب، ومن ثم معبد الإله حدد الأرامي وغيره. وتؤكد المعابد المكتشفة لاحقا على وجود القلعة منذ الألف الثاني قبل الميلاد، أو على الأقل وجود المركز (الأكروبول).

ولكن أقدم المنشآت الباقية للآن تعود إلى العصرين الأيوبي والمملوكي، وذلك من خلال الأبراج والأبواب التي شيدت في العصر الأيوبي والتي تم تجديدها في العصر المملوكي.

والقلعة كسائر القلاع الأخرى محاطة بخندق عميق وواسع يملؤه بالماء في حالة الحصار، وللقلعة مدخل أمامي يقع ضمن برج مستطيل الشكل، مجهز بمرامي السهام والشرفات الدفاعية في أعلاه، ويرتبط المدخل الأمامي بالخندق بواسطة درج خشبي متحرك يتم رفعه في حالة الحصار. كانت سفوح القلعة مغطاة بأحجار كبيرة ملساء مرصوفة بشكل منتظم لمنع التسلق إلى أسوار القلعة، ويرتبط المدخل الأمامي بالمدخل الأساسي بواسطة درج منتظم الارتفاع يستند على ثماني قناطر.

ممر الدخول كان مكشوفاً بحيث يسمح للمدافعين ضرب المهاجمين الذين يتمكنوا من كسر خط الدفاع الأول، ولا يؤدي الجسر مباشرة إلى المدخل الرئيسي، وإنما ينحرف بزواوية قائمة ليؤدي إلى المدخل، وضلعا الزاوية عبارة عن جدارين مجهزين بالسقاطات ومرامي السهام، التي تسمح بالقضاء على العدو المهاجم بأعداد صغيرة، بسبب ضيق المساحة التي تتقدم المدخل. وهذا النوع من المداخل يسمى المداخل المنكسرة (الباشورة)، وهي المداخل التي يرجع فضل تصميمها إلى المعماري العربي.

يلي المدخل الرئيسي المداخل الثلاثة: باب الأسود وباب الأسدين الضاحك والباكي، يلي كل مدخل مجموعة من الأواوين والمصاطب، التي تساعد على الدفاع عن كل مدخل بحيث لا

يؤثر سقوط أحدها على بقية الأبواب. وهي ليست على محور واحد وإنما متتابعة بشكل منكسر، بحيث يشكل كل واحد منها وحدة دفاعية، تؤمن الحماية الذاتية بالإضافة إلى حماية الأبواب الأخرى. وفي سقف كل بهو يلي أحد المداخل فجوات دائرية لصب الزيوت الحارقة على العدو، الذي يتمكن من الدخول عبر أحد الأبواب. هذا بالإضافة إلى الأبواب السرية التي تساعد على حركة الالتفاف المفاجئ على العدو المهاجم، كما أن الأسوار مدعمة بالأقبية ذات السطوح المستوية التي تسمح بالمراقبة من خلف الأسوار.

ومن الملاحظ أن القلعة ترتفع عن مستوى أرض المدينة حوالي 38/م، ومخطط سور القلعة اهليلجي الشكل، يقدر ارتفاعه بحوالي 12/م، تتخلله أبراج مربعة يعود معظمها إلى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي/، والأبراج مفرغة من الداخل وتتألف من طابقين وبعضها يتألف من ثلاثة طوابق، ولكل برج مرامي للسهام والشرفات الدفاعية.

كل التحصينات في القلعة مبنية بالمداميك الحجرية المنتظمة الأشكال، والمداميك مبنية بطريقة الرصف فوق بعضها البعض. ولم تقتصر منشآت القلعة على الأبراج والمداخل المحصنة فحسب، بل كانت تضم: القصر الملكي الذي شيده الملك الأيوبي يوسف الثاني- الحمام الملكي- قاعة العرش التي شيّدت في العصر المملوكي، والتي تم مؤخرا سقفها بسقف مستوي بدلا من القباب التي كانت تعلوها، وزين سقفها بزخارف خشبية جميلة.

تحصينات مدينة حلب:

شكلت حلب خطا دفاعيا متقدما ضد الهجمات الصليبية في القرن الثاني والثالث عشر الميلاديين، واحتلت مكانة هامة في العصر الأيوبي والمملوكي، بسبب موقعها الجغرافي والاستراتيجي.

فدعمت أسوارها وشيّدت الأبراج العديدة، في عهد السلطان نور الدين زنكي عام 1153/م، حيث بنى سورا آخر أقل ارتفاعا من السور القديم، ولكن السلطان الظاهر غياث الدين غازي هدمه عام 1196/م، وبنى أبراجا عديدة يحمل كل منها اسم الأمير الذي أوكل إليه السلطان ببنائه، وامتدت تلك الأبراج من باب الجنان حتى باب النصر. وأكمل السلطان الناصر يوسف عام 1245/م بناء الأبراج وبلغ عددها ما يقارب العشرين برجا، منها المستطيل ومنها المربع، وتتناسب كلها مع نقاط الضعف والقوة وطبيعة الأرض التي بني عليها السور، وكل برج عبارة عن طابقين: السفلي للذخيرة والاستراحة- والعلوي للدفاع. وكل برج مجهز بمرامي السهام وكوى قذف السوائل المحرقة. واستمر بناء الأسوار والأبراج في الفترات التالية حتى بلغت 128/ برجا، هدمها التتار خلال هجومهم على حلب، فأعاد بناء بعضها الأمير سيف الدين كمشبغا الحموي عام 693هـ/، وعاد تيمورلنك ليخربها ثانية وحاول فيما بعد حكام حلب ترميمها، إلى أن جاء الملك مؤيد الشيخ عام 820هـ/، وأمر بإعادة بناء الأسوار والأبراج

واستمر ذلك في عهد السلطان الأشرف برسباي بعد وفاة الملك مؤيد الشيخ. لم ينقطع العمل على ترميم سور حلب وتجديد أبراجه في مختلف العصور.

أبواب حلب:

تذكر لنا المصادر التاريخية العديد من الأبواب التي شيّدت في مختلف الأزمنة منها: باب العراق شمالي جامع الطواشي- باب الصغير جانب خندق القلعة- باب دار العدل وباب الفرج غربي القلعة- باب السعادة غربي المدينة- باب السلام شمالي غربي باب انطاكية- باب الأربعين شمالي شرقي القلعة. أما الأبواب التي مازالت حالتها سليمة تقريبا، والتي شيّدت في العصر الأيوبي فهي:

باب قنسرين:

يقع في الجزء الجنوبي من سور حلب ويقع بين برجين دفاعيين، وسمي بباب قنسرين لانفتاحه على الطريق المؤدي إلى مدينة قنسرين. وتشير الكتابة الموجودة على الجدار المحاذي للباب أن أبا النصر السلطان المؤيد المنصور قد جدد عام 838هـ/، كما جده السلطان الأشرف قانصوه الغوري عام 907هـ/.

باب انطاكية:

سمي بهذا الاسم لانفتاحه على الطريق المؤدي إلى مدينة انطاكية، يقع جنوبي باب جنين ويشتمل على بابين: يشرف أحدهما على مدخل المدينة والثاني على مخرجها، ويقوم الباب بين زاويتين ضخمتين بشكل مسدس. تذكر المصادر أن الملك الناصر يوسف هدمه عام 653هـ/، وبنى فيه برجين ضخمين بينهما دهليز طويل، ثم جدد الباب عام 818هـ-1415م/.

باب النصر:

يتكون من ثلاثة مداخل: واحد يفتح على المدينة والآخر إلى داخل المدينة، أما الثالث فيقع بين المدخلين، كان الباب مؤلف من طابقين. وتذكر الكتابة الموجودة على نجفة الباب أنه بني في عهد الملك الظاهر.

اشتهرت في العصر الأيوبي نماذج جديدة من المباني، مثل المشاهد والخانقانات التي ظهرت بكثرة في مدينة حلب.

المشاهد:

هي عبارة عن أضرحة تبني لرجال الدين الأتقياء، أو الصحابة أو لمن ينتسبون إلى العائلة الشريفة (آل البيت).

يعود بناء أقدم المشاهد (الأضرحة) في بلاد الشام إلى عصر الحمدانيين في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، وذلك من خلال بناء مشهد المحسن في عهد سيف الدولة الحمداني. وقد استمر بناء المشاهد في عهود لاحقة فكان بناء مشهد الحسين في عهد نور الدين الزنكي في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي. وبناء المشاهد من ناحية الشكل لا يختلف عن بناء المدارس التي شيدت متأخرا في العصر الأيوبي.

مشهد محسن بحلب:

بني مشهد الحسين في عهد سيف الدولة الحمداني عام 351هـ/، وقد أدخلت عليه العديد من التعديلات حتى هدم أثناء الهجوم التتري على حلب، فأعاد بناؤه السلطان الظاهر غازي.

يتقدم مشهد محسن ممشى ذو حجارة سوداء وبيضاء مرصوفة بحيث تشكل أشكالاً هندسية جميلة، ويعلو الممشى لوحتان فيهما كتابة تتحدث عن المكان.

يحيط بباب المشهد إطار حجري إهليلجي، وخلف المدخل ردهة ذات سقف أسطواني تؤدي إلى صحن المشهد مستطيل الشكل، يحده من الجنوب القبليّة ويؤدي إليها ثلاثة مداخل قوسية متساوية الارتفاع والاتساع، ويعلو القبليّة ثلاثة قباب تستند إلى أكتاف قنطرتين متقابلتين، والقبّة الوسط تستند على أربعة مقرنصات ذات حطتين، ويعلو المقرنصات شريط من المقرنصات البسيطة، أما القباب الأخرى فتستند على زوايا مثلثية كروية.

يوجد في القبليّة محراب بسيط، وفي الجهة الشرقية منها يوجد منفذ قوسي يؤدي إلى غرفة الضريح المصنوع من الخشب المحفور، يرجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي، ويعلو غرفة الضريح قبتان تستندان إلى قنطرة بواسطة زوايا مثلثية كروية، وللقنطرة عمودان رخاميان متقابلان لكل منهما تاج مزخرف، كما يوجد لغرفة الضريح باب قوسي آخر يفتح على صحن المشهد.

يحد الصحن من الشمال رواق ذو ثلاثة أقواس، ويعلو الرواق ثلاثة قباب تستند على أكتاف قنطرتين متقابلتين، ومن الغرب غرفة ذات قبة مرتفعة تستند على كتفي قنطرة، يزين واجهتها عمودان رخاميان لكل منهما تاج مزخرف بزخارف نباتية بديعة، بالإضافة إلى غرفتين ذات مداخل قوسية. ويد الصحن من الشرق مدخل المشهد وجزء من غرفة الضريح.

كما يوجد مدخل آخر يؤدي إلى درج يقود إلى سطح المشهد، وممر منكسر ذو سقف نصف أسطواني يؤدي إلى المطبخ.

الخانقاه:

اشتهر في العصر الأيوبي نموذج جديد من المباني التي شيدت لإيواء المتصوفين، وقد ضمت هذه المباني: القبلية (المصلى)- الإيوان- الأروقة- ومجموعة من الغرف لإقامة الأساتذة والمتصوفين.

والخانقاه: كلمة فارسية تطلق على الأبنية التي ابتداء المسلمون بتشييدها لإيواء المتصوفين. من أشهر هذه المباني التي مازالت باقية هو خانقاه الفرافرة في حلب، نسبة لحى الفرافرة، والذي سندرسه بالتفصيل:

خانقاه الفرافرة:

أمرت بتشييده ضيفة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين أبو بكر عام 635هـ-1237م/.

للخانقاه مدخل ينتهي من الأعلى بمقرنصة ذات ثلاثة حطات، ويعلو المدخل لوحة تحمل كتابة تذكر تاريخ إنشاء المبنى، ويلى المدخل دهليز منكسر ليشكل زاوية قائمة يؤدي إلى صحن الخانقاه، والصحن مربع الشكل يتوسطه حوض ماء مئمن الشكل، ويحده من الجنوب القبلية (المصلى) ويقابلها عل محور واحد الإيوان.

للقبلية مدخل ثلاثي الفتحات، ويعلوها قبة مرتفعة مبنية بالقرميد عل عكس معظم قباب المباني الأيوبية، وتستند القبة إلى عنق مئمن الشكل بواسطة أربعة زوايا مثلثية كروية، وفي أسفلها مقرنصات ذات حطتان، لتحويل الشكل المئمن إلى دائري. تتم إنارة القبلية بواسطة ثمانية نوافذ في عنق القبة. وفي الجهة الشرقية من الصحن دهليز مسقوف يؤدي إلى فسحة مربعة يحيط بها إيوان صغير وثلاثة غرف، وتتطاول جدران الغرف والإيوان لتتقارب في الأعلى بشكل مائل لتشكل مخروط مقطوع من الأعلى، ويتفرع من نفس الممر، ممر آخر يؤدي بواسطة درج حجري إلى الطابق الثاني، الذي يضم عدد من الغرف مسقوفة بعقود.

ويوجد في الجهة الغربية من الصحن درج يؤدي إلى سطح الإيوان الرئيسي، بعد أن يمر من ممر ضيق مسقوف، تفتح عليه عدة غرف صغيرة كانت تستعمل لإقامة المتصوفين.

إن الميزة الرئيسية في هذا المبنى استخدام الحجارة والقرميد في البناء، وما زالت بعض أجزاء الخانقاه تحت أكوام التراب، ربما تكشف الترميمات عن المزيد من العناصر المعمارية المستخدمة في هذا البناء،

سمات العمارة في العصر الأيوبي:

بوجه عام، فإن التقاليد المعمارية التي ابتكرها العرب المسلمون في العصر السلجوقي، استمر استخدامها وتطويرها في العصر الأيوبي.

فقد ساد استخدام المقرنصات، وانتقل التسقيف بواسطة القباب من فوق الغرف الصغيرة، إلى تسقيف القاعات الكبرى، ولا سيما القبليّة، كما ساد استخدام المداخل الثلاثية المحورية في معظم المباني المشيدة في هذا العصر.

ويمكن إيجاز هذه المميزات والسمات بالنقاط التالية:

- 1- التّكشف وعدم الإسراف في الزخرفة، بسبب الحرب مع الصليبيين.
- 2- القوة وإتقان التخطيط والبناء، ودقة النسب، مع ضخامة المنشآت بالنسبة للعصور السابقة. فقد برعوا بالعمارة العسكرية وأوجدوا أنماطاً من الأبراج والأبواب الدفاعية التي لم تكن معروفة، خاصة المداخل المنكسرة (الباشورة).
- 3- الاعتماد على الحجر المنحوت بأبعاد كبيرة كمادة أساسية في الواجهات والأعمدة وتيجانها، وأحياناً في القباب والأقبية.
- 4- ظهور الأروقة بالإضافة إلى الأواوين في المدارس وخاصة في حلب، وهذا تطور جديد لم يستعمل من قبل.
- 5- اعتماد التسقيف على القباب لدرجة كبيرة، وكانت هذه القباب مدببة في حلب، في حين شاعت القباب المفصصة في دمشق، واستندت بعض القباب إلى رقتين، العليا من 12/ ضلعاً، والسفلى مربعة، واستند البعض الآخر إلى الجدران مباشرة، واعتمد على المقرنصات أو السرّوال أو المثلث الكروي للانتقال من المضلع أو الدائرة إلى المربع، كما استعمل القبو المهدي في التسقيف وندر استعمال القبو المتقاطع، وخاصة في حلب.
- 6- شاع استعمال القوس المدبب، كما استعمل القوس الثلاثي الفصوص (لغرض تزييني)، والقوس الموتور (قوس عاتق فوق النوافذ) هذا في بلاد الشام، أما في مصر فاستمر استعمال القوس الفاطمي.
- 7- استعملت التيجان المقرنصة فوق الأعمدة للمرة الأولى في العمارة الأيوبية، وخاصة في بلاد الشام.
- 8- استمرت المآذن ذات المقطع المربع في بلاد الشام، بينما استمرت المآذن الفاطمية في مصر.
- 9- مداخل الأبنية ضمن إيوانات، تعلوها نصف قبة مقرنصة أو محززة أو ملساء.

- 10-بدء ظهور(بشكل محدود) التناوب بألوان الحجر في أكتاف الأبواب (الأبيض والأسود)، كما ظهرت بعض المزررات ، خاصة في دمشق بينما لم يظهر هذا في حلب.
- 11-تزيين الواجهات الداخلية والخارجية بأشرطة كتابية بخط الثلث وأحياناً بالكوفي المربع.
- 12- تطور النقوش الخشبية في المنابر وتوابيت الأضرحة، وأحياناً المحاريب.

د. عبير شدود